

الدكتور محمد مصطفى زيادة

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة

مجلة العربي

العدد رقم ٤٥

١ أغسطس ١٩٦٢

وزارة الإعلام-الكويت

## ● حوادث رائعة ، مثيرة ،

لا ينساها مواطن في الشرق العربي أبداً

ودلائها أن الحروب لا تحل المشكلات

# حملة لويس التاسع على مصر

بقلم : الدكتور محمد مصطفى زيادة

استاذ التاريخ بجامعة القاهرة

نفسها الى الشواطئ المصرية، بنحو مائة وخمسين سنة .

ولذا سوف يبدأ هذا الموضوع من البداية ، أى منذ الحلول الصليبي الأول بالشام ، وتأسيس دولة بيت المقدس الصليبية بفلسطين ، سنة ١٠٩٩ م ، مع التنبيه هنا بأن طول المسافة الزمنية بين الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، وحملة الملك لويس التاسع على مصر، وهى المعروفة بالسابعة ، لا يحو شيئاً من الواقع التاريخي، وهو أن الملك لويس التاسع ينتهى نسبه الصليبي الى جودفرى دى بويون ، أول حكام دولة بيت المقدس الصليبية ، وأول المفكرين من زعماء الصليبيين فى الاستيلاء على مصر . وكلا الرجلين فرنسي ، وما بينهما من شخصيات وحوادث صليبية كثيرة، لا يعدو أن يكون سلسلة نبت بعضها من بعض فى حلقات تاريخية متصلة متحمسة ، ومزاجها الحاح غنيد للاستيلاء على البلاد المصرية.

وبالقياس الى الملك الفرنسى لويس التاسع ونسبه الصليبية ، تبدو شخصية السلطان الصالح نجم الدين أيوب كذلك واضحة جلية ، فهو الذى تلقى مطالع الزحف الصليبي على مصر بقيادة الملك لويس التاسع ، وهو السليل الحقيقى

■ نقطة البداية فى هذا الموضوع قيام الحروب الصليبية ، فى العصور الوسطى ، وما تولد عن تلك الحروب الشهيرة من تفكير صليبي أوروبى ، للاستيلاء على مصر ، دون تحديد بعادته بذاتها ، أو بسنة هجرية أو ميلادية معينة . والحروب الصليبية نفسها ، كما هو معلوم ، حركة أوروبية اعتدائية - توسعية ، استمدت جذورها من عميق التنافس القديم بين الشرق والغرب ، ومن توغل الفتوح العربية الإسلامية فى أطراف الامبراطورية البيزنطية ، وفى أجواف الممالك المسيحية القريبة، فى اسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وجزر البحر المتوسط. وتضاف الى هذه العوامل العالية الكبرى ، عوامل أوروبية محلية ، وهذه ترجع الى القرن الحادى عشر الميلادى ، والى صميم التاريخ الاوروبى فى ذلك القرن .

بعبارة أخرى ليست فاتحة هذا الموضوع مشروعا صليبيا للملك الفرنسى لويس التاسع ، فى سبيل استيلاء صليبي على مصر ، سنة ١٢٥٠م، بل تفكير زعماء الصليبيين السابقين جميعا فى ذلك المشروع ، فى صورة أو أخرى ، منذ أخذت أرجال حملتهم الصليبية المعروفة بالأولى تصل تترى الى الشام ، أى قبل وصول حملة لويس التاسع

حيث ظلت الحاميات الفاطمية التابعة لمصر تشكل خطرا يهدد الصليبيين . واتجه الملك بلدوين نحو هذا الخطر بمشروع يظهر منه أنه كان تمهيدا للاستيلاء على مصر، إذ راح في غضون سنة ١١١٦م يستكشف المناطق جنوبى فلسطين حتى وصل الى آيلة ( العقبة ) على شاطئ البحر الاحمر ، ومن



لعمه الأعلى ، أى للسultan صلاح الدين الأيوبي نفسه ، فى الجهاد العام ضد الصليبيين فى مصر والشام . على أن هذا القياس يكشف عن فارق كبير بين الأيوبيين والصليبيين ، وهو أنه على حين جنح سلاطين البيت الأيوبي عموما الى سياسة المهادنة نحو الصليبيين بالشام ، مع الاستعداد واليقظة للجهاد الدفاعى فى أى وقت من الأوقات ، لم يترك ملوك أوروبا والبابوية فرصة لتكرار الاعتداء على مصر ، مرة بعد أخرى ، منذ قيام الحروب الصليبية بالشام ، وهو ما سوف يتضح للقارئ بالصفحات التالية ، فى شئ من التفصيل الكفيل بالبرهان على أن حملة لويس التاسع كانت

## وهزيمة فى المنصورة

هناك سار على طريق الطور حتى وصل الى دير القديسة كثرينة ، فى شبه جزيرة سيناء . غير أن رهبان ذلك الدير امتنعوا من أن يضيفوه بديرهم خشية أن يصل الخبر بذلك الى السلطات الفاطمية ولذا رجع بلدوين الى فلسطين بخفى حين . ومع هذا عاد بلدوين الى الأراضى المصرية مرة ثانية ، على رأس جيش مكون من ستمائة فارس وراجل ، وزحف نحو الفرما ( بيلوزيوم ) ، فدخلها عنوة ونهبها ، ثم تقدم منها الى تنيس على شاطئ بحيرة المنزلة ، وهناك انتابه مرض شديد بسبب أكلة من سمك البحيرة . وعند ذلك طلب بلدوين أن يرجع محمولا على محفة الى فلسطين ، لكن النية لم تلبث أن أدركته عند موضع قرب العريش الحالية ، سنة ١١١٨ م ، ولا يزال اسمه يطلق على ذلك الموضع حتى العصر الحاضر ، مع شئ من التحريف - أى بردويل .

حلف بين الفاطميين ودمشق

لتطويق الصليبيين

وبعد وفاة بلدوين الأول بثلاثة أعوام مات الملك

حلقة الختام فى سلسلة الحلقات الصليبية الهادفة الى الاستيلاء على مصر ، فى العصور الوسطى .

جودفرى

أول من فكر فى الاستيلاء على مصر

وأول ذلك التفصيل ما تقدمت الإشارة اليه من تفكير جودفرى دى بويون فى الاستيلاء على مصر ، تقديرا منه لأهمية موقعها الجغرافى فى استمرار الكيان الصليبي الأوروبى بالشرق . ولذا أعلن جودفرى استعداده للتنازل عن حكم الدولة الصليبية فى بيت المقدس اذا هو نجح فى تنفيذ هذه الفكرة ، ولكنه مات سنة ١١٠٠ م ، قبل أن يبدأ فى أى شئ لتنفيذ فكرته .

بلدوين الأول واصل سياسة أخيه فى الاستيلاء على مصر

ثم خلفه أخوه بلدوين الأول، وهو الذى اتسعت مملكة بيت المقدس الصليبية فى أيامه حتى شملت الأراضى الممتدة على ساحل البحر المتوسط من بيروت الى العريش. ما عدا مينائى صور وعسقلان،

فعليا لأملاك الدولة النورية ، بعد وفاة نور الدين ، وأن يجعل مصر وسورية وأعلى العراق تحت حكمه، فكان ذلك كله نذيرا بدنو ساعة الصليبيين . وكانت مصر صاحبة الزمام - جغرافيا وسياسيا واقتصاديا - في تلك الامبراطورية الصلاحية ، ولذا نادى صلاح الدين من القاهرة عاصمته بأن هدفه ومنتهاه هو الجهاد ضد مملكة بيت المقدس الصليبية . ولم يلبث صلاح الدين أن بلغ أقصى ما تمناه ، بعد أن شن حربا خاطفة قضى فيها على أولا على زهرة جنود الصليبيين في حطين قسرب طبرية ، وبعد أن استولى على مدينة بيت المقدس نفسها ، ولم يبق من مملكة بيت المقدس بأيدي الصليبيين سوى مدينة صور .

### الحملة الصليبية الثالثة والرابعة

وهذه الكوارث الصليبية هي التي جاءت بالحملة الصليبية المعروفة بالثالثة من أوروبا الى فلسطين . لمحاولة اخراج صلاح الدين من مدينة بيت المقدس على الأقل . وكان اخفاقها في تحقيق ما آتت من أجله مما أقنع أحد قادة هذه الحملة ، وهو رتشارد الأول ملك إنجلترا ، بأن الطريق لاسترداد المملكة الصليبية المفقودة يبدأ أولا وقبل كل شيء بالاستيلاء على مصر . ولم تكن هذه الفكرة جديدة ، فإن مصر لم تغب عن أذهان الصليبيين منذ قدومهم الى الشرق ، وإذا لم يستطع الملك رتشارد نفسه القيام بعمل حربي في هذا السبيل فإن الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة كانت على وشك الهبوط على مصر سنة ١٢٠١ م ، لو لم تتحول أنظار قادتها الى الاستيلاء على القسطنطينية وتقسيم الامبراطورية البيزنطية الى أمارات صليبية .

### الحملة الصليبية الخامسة تتجه الى مصر مباشرة ، وتحتل دمياط وفارسكور ، ثم تخيب

أما الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة فتوجهت الى مصر مباشرة ، وأرست سفنها عند قرية بورة ، وهي على مسافة بضعة كيلومترات غربى مصيف رأس البر الحالي ، ولم تلبث أن بدأت عملياتها الحربية بمحاصرة دمياط المصور الوسطى . وظلت الجيوش الصليبية قبالة دمياط هذه سنة وبضعة أشهر حتى دخلتها عنوة في شهر

الأفضل شاهنشاه وزير الدولة الفاطمية بمصر ، وهو الوزير الأرمني الاصل الذى سيطر على شؤون تلك الدولة لمدة ربع قرن ، وهو صاحب مشروع تفاهم سابق مع الصليبيين ، واليه يرجع انقلاب ذلك المشروع الى عكسه ، وارسال حملات عسكرية لمحاربة القوات الصليبية بفلسطين . والى هذا الوزير تنسب كذلك فكرة الحلف بين الدولة الفاطمية وامارة دمشق وقتذاك ، أملا في مهاجمة مملكة بيت المقدس الصليبية من ناحيتين في وقت واحد . ونجح الوزير الأفضل شاهنشاه في تحقيق ذلك الحلف الى حد كبير ، وظلت فكرته هذه محور سياسة الفاطميين بصدد الصليبيين عدة سنين ، غير أنها لم تات بثمرة ، بسبب الاضطرابات الداخلية التي أضعفت الخلافة الفاطمية في مصر ، وأقعدتها عن القيام بأى هجوم جدى ضد الصليبيين .

### سباق بين الصليبيين ونور الدين للاستيلاء على مصر

وهذه الفكرة التي كان سداها ولحمتها تهديد المملكة الصليبية في بيت المقدس من ناحيتين ، ومهاجمتها حربيا من جهتين في وقت واحد . لم تتم الا بعد أن تغيرت الأوضاع السياسية بالشرق الأدنى تغيرا بدايته استيلاء بلدوين الثالث ملك بيت المقدس على مدينة عسقلان في جنوب فلسطين صيف ١١٥٣ م ، ومقابلة نور الدين محمود بن زنكى ، أمير حلب هذه الخطوة الصليبية بالاستيلاء على مدينة دمشق ، سنة ١١٥٤ م . وكانت نهاية ذلك التغير سباق بين مملكة بيت المقدس ومملكة نور الدين ، للاستيلاء على مصر ، ومن أجل ذلك أرسل الصليبيون ثلاث حملات متتابعة الى الأراضى المصرية ، كما أرسل نور الدين وراءها ثلاث حملات مثلها . ثم اختتمت أشواط هذا السباق بخيبة الجيوش الصليبية، ونجاح الجيوش النورية في الاستقرار بمصر سنة ١١٦٩ م حين تسلم القائد النورى ، وهو صلاح الدين يوسف بن أيوب ، مقاليد الوزارة الفاطمية أولا ، وانفرد بشئون الدولة الفاطمية كلها نيابة عن سيده نور الدين ، وذلك بعد وفاة آخر الخلفاء الفاطميين سنة ١١٧١ م.

### صلاح الدين

ثم استطاع صلاح الدين أن يعلن نفسه وارثا



قرب بنها الحالية ، ويلتقى به ثانية جنوبى فارسكور . وخرجت هذه السفن من بحر المحلة عند فارسكور الى مجرى النيل ، فحالت بسين الصليبيين وما سوف يهبط اليهم من النجندات النهرية من دمياط ، كما قطعت خط الرجعة كذلك على السفن الصليبية التى رافقت الحملة سابقا من دمياط . ثم أمر السلطان الكامل بقطع جسر النيل شمالى لطلخا، فضلا عن قطع الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة ، ففاض الماء ، وركب مساحة شاسعة من الارض شمالي مواقع الصليبيين، وصارت هذه المساحة الفارقة حائلا بينهم وبين دمياط ما عدا طريق ضيق سده السلطان الكامل كذلك بعدد من عساكره عند شرمساح .

هكذا انحصر الصليبيون وتبددت آمالهم في الزحف جنوبا نحو القاهرة ، ولم يبق لهم سوى أن يشقوا لأنفسهم طريقا نحو الشمال نحو قواعدهم في دمياط. ولذا أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وسائر أثقالهم ، واهتبلوا فرصة المستميت في الانسحاب في جنح الظلام ، فحال الماء والعسكر بينهم وبين مقصدهم ولم يلبثوا أن أدركوا ياس موقفهم . عند ذلك وليس قبله طلب الصليبيون السماح لهم بالعودة الى دمياط للجلء عنها في غير شرط الا ما رضى به السلطان وذلك بعدد طلب الامان. وأعطى السلطان الكامل جيوش الصليبيين امانهم وسمح لهم بالعودة الى دمياط للجلء عنها. وهكذا انتهت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة وحق لمدينة العسكر الكاملى أن تكون مفعولة من النصر على قول الجغرافى ياقوت الحموى في كتابه « معجم البلدان » ، وأن تسمى المنزلة المنصورة على قول المؤرخ « المقرئى » في كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » .

### الحملة الصليبية السادسة كانت حملة مفاوضة

وكان من المستطاع أن تتجنب هذه الحملة الصليبية ما أصابها من خيبة بل كان من المستطاع تحقيق معظم الفرض الذى من أجله تكونت وهو استعادة مملكة بيت المقدس لو أن زعماء الصليبيين وقتذاك قبلوا شروط الهدنة التى عرضها السلطان الكامل على الصليبيين مرارا وتكرارا ، قبل سقوط دمياط في أيديهم وبعده . لكن المقادير شاءت أن يكون الفائز بتحقيق هذا

نوفمبر سنة ١٢١٩ م ، وذلك برغم ما بذل السلطان الكامل الأيووبى من جهود سلمية لانقاذها من ذلك المصير ، والواقع أن السلطان الكامل عرض على الصليبيين شروطا مفرية للهدنة ثمنا لفك الحصار والجلء عن دمياط العصور الوسطى ، فلما أعيته الحيلة ، وسقطت هذه المدينة فعلا في أيدي الصليبيين ، انسحبت الجيوش الأيوبية من مواضعها وقتذاك عند فارسكور الى موضع اختاره السلطان الكامل سابقا ، لنقل معسكره اليه اذا هو اضطر للانسحاب . ولم يكن لهذا الوضع اسم معروف ، كما لم يكن له صفة طبوغرافية تميزه عن سائر ما حوله من أراضى الدلتا الرخوة ، ما عدا أنه موضع قضاء فسيح ، معتدل الهواء ، مثلث الشكل تقريبا ، بين بحر اشمووم طناح « البحر الصغير الآن » والشاطئ الشرقى للنيل ، قبالة قرية اسمها جوجر ، وهى من قرى مدينة طنخا الحالية .

أما جيوش الحملة الصليبية فاختلفت قيادتها حول موعد خطواتها التالية ، بعد دخول دمياط وطال الاختلاف الى ثمانية عشر شهرا عكف السلطان الكامل في اثائها على تحصين معسكره الجديد ، وبناء الدور العسكرية والأسوار اللازمة . وأخيرا زحف الصليبيون جنوبا في قوات برية بحرية كبيرة ، واستولوا على فارسكور في منتصف يولية ١٢٢١ م ، ثم زحفوا منها الى شرمساح واحتلوها وانتشرت كتابهم على طول مجرى بحر اشمووم طناح الى قرب اضحال بحيرة المنزلة ، ولم يفصل بينهم وبين معسكر السلطان الكامل سوى ذلك المجرى المائى المشهور بعمقه وشدة انحدار جانبيه .

وهنا كانت المعرفة بأحوال النيل وقنواته ، ولا سيما أيام الفيضان ، ذات أثر عظيم ، في تطور الحوادث، إذ غفل الصليبيون في حركتهم الانتشارية على طول بحر اشمووم طناح عن قناة قديمة ، سوف تمتلئ بماء الفيضان وتصبح حائلا بينهم وبين خط الرجعة الى دمياط . ثم حل الفيضان في أغسطس، وصار من المتعذر على الخيالة والشاة الصليبيين أن يعبروا بحر اشمووم طناح جنوبا ، نحو معسكر السلطان الكامل ، كما صار من المتعذر عليهم عبور القناة القديمة شمالا الى قواعدهم في دمياط ، على حين وقفت سفن مصرية أيوبية لسفنهم بالرصد . ثم أبحر عدد من السفن المصرية الأيوبية في بحر المحلة ، وهو فرع كان يخرج وقتذاك من النيل

الصليبيين الفرنسيين ، أمثال هيو دوق برجنديا ، ويطرس كونت بريثاني ، ووليام كونت فلاندر ، فضلا عن وليم الانجليزى طويل السيف ، وحنا جوانفيل صنجيل شمباتيا ، وهو الذى كتب تاريخ هذه الحملة من زاويته الصليبية .

### الحملة تنزل عند رأس البر وتحتل دمياط دون قتال

وأبحرت هذه الحملة نحو الشواطئ المصرية أواخر سنة ١٢٤٩ م ، وأنزلت طلائع جيشها عند مصيف رأس البر على الضفة اليسرى للنيل ، لا عند قرية بورة كما فعلت الحملة الصليبية ولم تلبث هذه الطلائع أن تغلبت على القوات المصرية المراقبة في ذلك الموضع الجديد . وتشجع الملك لويس بذلك التوفيق الابتدائي المفاجئ ، فزحف بجيشه جنوبا يريد العبور الى دمياط العصور الوسطى على الضفة اليمنى للنيل ، فوصل الى الموضع المعروف حاليا باسم قرية الجربى حيث اجتاز الجيش الصليبي مجرى النيل على جسر قديم من السفن المربوطة بعضها الى بعض بسلسلة ضخمة من الحديد، وهذه السلسلة الحديدية كانت مربوطة بدورها الى جدران برج من أبراج دمياط العصور الوسطى . وتجمع الجيش الصليبي عند هذا البرج ( عزة البرج الحالية ) ، وتقدم منه حتى دخل دمياط العصور الوسطى ، فاستولى عليها دون قتال ، واستقر بها ، وحول جامعها الكبير الى كنيسة كاتدرائية ، وكل ذلك من باب التمهيد لزحف صليبي جنوبى عام نحو القاهرة .

### الحملة تبدأ زحفها نحو القاهرة

واتزم الملك لويس التاسع في زحفه نحو القاهرة طريقا هو في جملة - وليس في تفصيله - طريق الحملة الصليبية السابقة ، مما يدل على اعتزامه الانتفاع بتجارب تلك الحملة وأخطائها ، لتجنب حملته مصيرا مشابها لمصيرها الفاشل . ولذا تقدم الملك لويس التاسع في حذر وتؤدة الى فارسكور ، ومنها الى شرمساح والبرمون ، وصارت الجيوش الصليبية على مسافة عشرة كيلومترات تقريبا من بحر اشمون طنح ، وكل ذلك دون أن تلقى مقاومة كبيرة من ناحية القوات المصرية الأيوبية . ولم يشأ الملك لويس أن تنتشر كتاب

الغرض دون قتال هو الامبراطور فردريك الثانى ، اذ افتتح هذا الامبراطور العظيم سلسلة من المفاوضات الودية مع السلطان الكامل ، فلما وصلت تلك المفاوضات الى قرب نهايتها الناجحة جاء فردريك الثانى بنفسه الى فلسطين سنة ١٢٢٨ م على رأس فئة قليلة من الجند لا يزيد عددها عن ستمائة ، وهى فئة اطلق عليها مؤرخو الحروب الصليبية اسم الحملة السادسة مع انها لم تات لحرب بل انها لم تقم بعمل سوى احاطة شخص الامبراطور فردريك بحاشية رامزة الى أهبته وعظمته . أما فردريك فاخذ في مفاوضات السلطان الكامل بالحسن حتى عقد معه هدنة من شروطها أن يقوم سلام بين المسلمين والصليبيين لمدة عشر سنوات . وأن تعود مدينة بيت المقدس والناصرية وبيت لحم الى الصليبيين ، مع النزول لهم عن شريط من الأرض يكون طريقا يصل مدينة بيت المقدس ببيضاء عكا ، وبهذه المعاهدة أعاد فردريك الثانى مدينة بيت المقدس الى الصليبيين . غير أن الصليبيين لم يستطيعوا الاحتفاظ بمدينة بيت المقدس سوى خمسة عشر عاما فقط ، اذ أخرجهم المسلمون منها سنة ١٢٤٤ م ، بعد أن نقضوا شروط الهدنة الكاملة الفردريكية .

### الحملة الصليبية السابعة ، حملة لويس التاسع فخر ملوك فرنسا

من أجل هذا الحادث وغيره من حوادث الحرب التى تجددت بين المسلمين والصليبيين سرت في أوروبا دعوة لحملة صليبية جديدة ، وتزعمها ملك شاب في الثلاثين من العمر ، وهو الذى اشتهر في التاريخ الأوروبى بالفضيلة والتقوى طول حياته، واعتبرته الكنيسة الكاثوليكية - فيما بعد - قديسا من القديسين العالمين . ذلك لويس التاسع فخر ملوك فرنسا ، وقائد هذه الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة في حساب الصليبيين ، ونموذج التقوى العسكرية المحاربة في العصور الوسطى . ومن الأوصاف الشخصية لهذا الملك انه كان طويل القامة ، نحيل الجسم ، يعلو وجهه الأشقر شيء من فقر الدم ، وينتابه مرض الحمرة وأوجاعها في كثير من الأحيان .

واصطحب الملك لويس في هذه الحملة زوجته مرجريت البروفنسالية ، وأخويه روبرت كونت أرتوا ، وشارل كنت أنجو ، وعددا من قدماء

قتال ، توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب على أثر وصول الخبر اليه بوقوع الكارثة .

### شجرة الدر تبقى على ما هى عليه حتى يعود ربيبها

ورأت السلطانة شجرة الدر أن تظل شئون الدولة على حالها ريثما يصل ربيبها ولى عهد السلطنة من ولايته بأعلى العراق الى مصر ، واطمان قادة العسكر وأرباب الدولة الى مراكزهم، فتبدلت الحال غير الحال ، ولا سيما بعد أن صار الصليبيون فعلا قبالة المنزلة المنصورة ، وبعد أن دق الملك لويس التاسع أوتاد معسكره على الضفة الشمالية للبحر الصغير قبالة المعسكر المصرى الأيوبي جنوبى ذلك البحر .

### تراشق بين الطرفين دون قتال خطير

وتراشق الطرفان من هذين الموقعين بقذائف المجانيق مدة شهر ونصف شهر ، أى حتى أواخر يناير سنة ١٢٥٠ م ، ولم يحدث بينهما قتال خطير ما عدا أن فرقة من الخيالة المصرية الأيوبية حاولت عبور البحر الصغير من مخاضة قريبة في جنح الظلام لمباغطة المؤخرة الصليبية بهجوم ورائى خاطف . فتصدت لها مراكب صليبية أفسدت عليها حركة العبور ، وأسفرت العملية كلها عن إحراق المصريين مركبا من المراكب الصليبية . أما الملك لويس التاسع فاهتم منذ البداية بإقامة جسر من الخشب في عرض البحر الصغير ، ليعبر منه الى أطراف المعسكر المصرى الأيوبي في جديدة ، وعلى الرغم من الجهود الصليبية لحماية الصناع والفعلة في أثناء عملهم نهارا وليلا ، فإن القذائف النارية المصرية المستمرة من الساحل الآخر أبادت معظم العمال الصليبيين ، وجعلت مشروع الجسر مستحيل التنفيذ ، وأوقفت العمل فيه نهائيا .

### بدوى يخون ، ويدل الصليبيين على معبر الى المعسكر المصرى

ثم جاء رجل ، وهو من البدو على ما قيل ، وأرشد الملك الفرنسى الى مخاضة عند قرية سلمون ، وهى على مسافة أربعة كيلومترات من معسكر الصليبيين ، لعبور الخيالة الصليبية منها

جيشه على طول مجرى بحر اشموم طناح قرب اضحال بحيرة المنزلة ، كما فعلت الحملة الصليبية السابقة ، بل قرر الوقوف والتركيز بجيشه فى المساحة الضيقة بين هذا المجرى والنيل ، وابتنى هناك معسكرا كبيرا ، وجعل حوله سورا وخندقا ، وبذا صار الصليبيون قبالة المعسكر المصرى الأيوبي بالمنزلة المنصورة ، ولم يفصل بينهم وبين القوات المصرية الأيوبية سوى ذلك المجرى المائى الهام .

### ضالة العمليات التعويقية من جانب مصر الأيوبية وأسبابها

وبذا بلغ الصليبيون منتصف الطريق فى سيرهم الموثيد من دمياط العصور الوسطى الى القاهرة ، بعد أن لبثوا فى سيرهم هذا سبعة عشر يوما ، مما يدل على أن وصول الصليبيين أخيرا الى قبالة المنزلة المنصورة لم يكن بناء على دفع عسكرى منظم ، أو قيادة حربية بارعة ، أو استراتيجية ملمة بمعاثر الطريق ، بل نتيجة لضالة العمليات التعويقية التى استطاعتها القوات المصرية الأيوبية حتى وقتذاك ، لأسباب خارجة عن إرادتها .

### السلطان يحمل الى المعسكر على محفة

أما أول تلك الأسباب وآخرها فهو أن السلطان نجم الدين أيوب ، كان مريضا مرض الموت ، وجاء الى معسكره ومركز قيادته فى شرمساح محمولا على الاكتاف فى محفة وحوله قادة العسكر وأرباب الدولة ومنهم على وجه التخصيص القائد العام فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وقاضى القضاة بدر الدين حسن بن يوسف السنجارى ، والأمير المملوكى أيبك التركمانى ، والقائدان المملوكيان بيبرس البندقدارى ، واقطاي الصالحى ، فضلا عن السلطانة شجرة الدر ، وهى زوجة السلطان وكان كل من أولئك منصرفا فى تكييف مصيره حال وفاة السلطان ، وجميعهم معتقدون - فيما يبدو - أن المصلحة الآنية الراهنة تقتضى تأجيل الوقوف فى وجه الصليبيين الى ما بعد انجلاء الموقف الداخلى .

### خبر استيلاء الصليبيين على دمياط قتل السلطان

فلما استولى الصليبيون على دمياط بغير

المنصورة دخول الظافر المنتصر ، فوجدوا مدينة خالية من المقاومة . وانتشرت الفرسان في الأزقة والحارات ، تمهيدا لحركة تطويقية صليبية نحو القصر السلطاني ، لطلب التسليم والاعتراف بالنصر الصليبي التام .

### العساكر المصرية الأيوبية تبديد الصليبيين

غير أن كونت روبرت لم يكذب يقترب من القصر السلطاني حتى صدرت الأوامر للعساكر المصرية الأيوبية بالحركة المتفق عليها ، فحملوا على الصليبيين حملة فجائية ، من جميع الجهات ، وأبادوا جنودهم الموزعين بالأزقة والحارات ، ثم أطبقوا على كونت روبرت وجنوده عند باب القصر السلطاني . ولأد كونت روبرت بالفرار ولجأ إلى بيت لم تلبث العساكر المصرية الأيوبية أن أخرجته منه قتيلا مشخنا بالجراح . وبذا انقلب النصر الصليبي عند جديلة إلى هزيمة طامة لامة عند المنصورة ، حيث بلغ عدد قتلى الصليبيين ما يقرب من ألف وخمسمائة في بضعة ساعات ، وهو عدد الطلائع الصليبية كلها تقريبا .

### الملك لويس يعلم بانهزام طلائعه في المنصورة

واستمع الملك لويس التاسع إلى أخبار الكارثة الصليبية المزدوجة من أفواه الصليبيين القليلين الذين نجوا يومذاك بأنفسهم صدفة أو فرارا ، وكان ذلك بعد ساعات من عبور الملك لويس مخاضة سلمون إلى الضفة الجنوبية من البحر الصغير ، بسائر الخيالة الصليبية حسب الاتفاق الأصلي . ولذا أخذ الملك في ترتيب صفوفه استعدادا لما سوف يقوم به الجيش الأيوبي المصري من حركات هجومية لدفعه إلى الوراء، كما أقام الجسر المطلوب في عرض الماء لتستطيع فرقة الرماة الصليبية التي بقيت معسكرة شمالي البحر الصغير أن تعبر إليه في سهولة ، أو أن يعبر هو إليها في سرعة إذا انهزمت خيالاته على أيدي الخيالة المصرية الأيوبية.

### لويس يطاول لعل نزاعا يقع بين شجرة الدر والسلطان العائد

ومنذئذ حمى القتال بين الطرفين ، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة ، ووقعت بينهما معارك

إلى المعسكر المصري الأيوبي ، وذلك مقابل ثمن بخس دنائير معدودة ، وبئس الثمن .

### طلائع الصليبيين تتقدم بسرعة إلى معسكر المصريين

وعبرت طلائع الجيش الصليبي تلك المخاضة قبل الفجر بقيادة روبرت كونت ارتوا أخى الملك لويس التاسع ، وتقدمت هذه الطلائع في سرعة نحو أطراف المعسكر المصري الأيوبي في جديلة، واقتحمته في وضوح الصباح الباكر ، مخالفة بذلك تعليمات الملك أن تنتظر الطلائع في مكانها حتى يتم عبور الحملة الصليبية كلها إلى الناحية التي فيها معسكر المسلمين . واشتبك الفريقان اشتباكا عنيفا خر القائد العام فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صريعا في أوائله ، وتقهقر الجند المصريون الأيوبيون إلى المعسكر الرئيسي بالمنصورة.

### خطة خادعة يرسمها القائد وتوافق عليها شجرة الدر

وهنا ظن كونت روبرت أخو الملك أن النصر سوف يتحقق له وحده بعد هذا التوفيق الأول ، وسيطر على ضحوة ذلك اليوم نفحة من التسرع والانانية وغرور المجد الشخصي ، فركب رأسه ، وقرر الإسراع في الزحف نحو المنصورة نفسها ، متجاهلا تعليمات أخيه الملك مرة أخرى ، متفاضيا عن نصائح رفقائه من القادة ، راميا إياهم بالهجن والعجز عن انتهاز الفرصة . غير أن كونت روبرت لم يلبث أن رأى ظنه في النصر يخيب كل الخيبة ، بفضل خطة حربية رتبها بيبرس البندقدارى القائد المملوكي ، بعد موافقة السلطانة شجرة الدر ، وهى وقتذاك مقيمة بالقصر السلطاني في المنزلة المنصورة .

وبناء على هذه الخطة أكن بيبرس فئة كبيرة من القوات المصرية الأيوبية - ومعظمها في هذه المرحلة من الممالك - في كمائن متعددة حول المنصورة ، وأمرها أن تظل في كمائناتها حتى تصدر إليها الإشارة بالحركة والتقدم إلى القصر السلطاني .

### روبرت وفرسانه يدخلون المنصورة فلا يلقون مقاومة

ولذا دخل كونت روبرت وفرسانه مدينة



هذا العرض سخاء وتساهلا من ناحيته ، فضلا عما فيه من تنازل عن كبرياء ديني قديم ، وهو كبرياء لا يرضى بمفاوضة المسلمين الا عن طريق السيف والقتال . غير أن الملك لويس لم يجد سميعا أو مجيبا لمهادنة فات أوانها فجمع اليه مجلس قيادة الجيش الصليبي ، وقرر معهم وجوب التقهقر الى دمياط ، على أن تكون عودة المرضى والجرحى على المراكب الصليبية الباقية في النيل ، وأن تكون عودة الجيش عن طريق البرمون وشرمساح وفارسكور . وبدأ الجيش الصليبي حركته التقهقرية في البر والنهر أوائل ابريل سنة ١٢٥٠ هـ ، وهو يوافق أوائل الحرم ٦٤٨ هـ .

### تنقلب مطاردة المصريين للصليبيين التقهقرين الى هجوم عنيف

وكانت هذه البداية مؤذنة للعساكر المصرية الأيوبية بالزحف العام لمطاردة الصليبيين ، وعرقلة حركتهم ، والاستيلاء على أسلحتهم وأدواتهم الحربية . ثم لم تلبث هذه العملية أن انقلبت من مطاردة وعرقلة ، الى حركة هجومية عنيفة . غرضها تطويق الجيوش الصليبية التقهقرة ، والوقوف في طريق عودتها الى دمياط ، واجبارها على التسليم . وضيق المعسكر المصري الأيوبي الخناق على الصليبيين في البر والنهر ، وتراوت الهزيمة المحتومة للملك لويس ، وهو يعالج الآم المرضى بالحمى وقتذاك ، ولا يكاد يستطيع الجلوس على ظهر فرسه . وأوى الملك الى دار بقرية منية الخولى عبد الله على مسافة من شرمساح ، حيث كان القتال على أشده ، والحركة التطويقية تزداد عنفا ، والخناق على الصليبيين يزداد ضيقا .

### تسليم الصليبيين ، ووقوع لويس الملك في الأسر

ثم نادى رجل فرنسي اسمه مارسل في وسط المعسكر الصليبي بأن الملك لويس التاسع أصدر أوامره بالتسليم في غير قيد أو شرط ، ويدو أن هذا الرجل قام بذلك بناء على اقتناعه الشخصي بأن التسليم الصليبي آت لا ريب فيه ، وربما أفاد الموقف قليلا أن تعتقد القوات المصرية الأيوبية أن الملك الفرنسي هو الداعي للتسليم . ويقال غير ذلك بصدد هذا الرجل الذي يحتمل أيضا أنه قام بهذا النداء تنفيذًا لتعليمات فئة من الصليبيين

حامية ، رجحت كفة النصر فيها للقوات المصرية الأيوبية يوما بعد يوم . ومع هذا ظل المعسكر الصليبي بقيادة الملك الفرنسي في مواضعه لا يتحرك ، أملا في أن يدب النزاع في المعسكر المصري الأيوبي بين السلطنة شجرة الدر ، وولى العهد تورانشاه عند وصوله من ولايته ، لاعتلاء عرش السلطنة . لكن نزاعا لم يقع في الصورة أو في السرعة التي تنبأ بها الملك الفرنسي ، بل وصل السلطان الجديد تورانشاه الى المنصورة ، وتسلم زمام الموقف ، ودل على مهارة فائقة بما اتخذ من تدابير حربية كفلت تحقيق هزيمة الصليبيين في أقل من شهرين اثنين .

### السلطان تورانشاه يقطع المؤونة على الصليبيين

وكان أول هذه التدابير الحربية أن أمر تورانشاه باحضار عدد من السفن الحربية الخفيفة من القاهرة الى سمند ، وحملها قطعاً مفككة مفصلة على ظهور الجمال الى بحر المحلة ، حيث تم تركيبها وتعويمها وشحنها بالقاتلة ، وسارت هذه السفن في بحر المحلة الى قرب فارسكور ، حيث دخلت مجرى النيل ، ووقفت بالمرصاد لمنسج المراكب الصليبية الواردة من دمياط بالمنسج والذخائر من الوصول الى معسكر الصليبيين . واستطاعت هذه السفن الخفيفة أن تستولي على أكثر من ثمانين سفينة من السفن التموينية الصليبية ، واحدة بعد أخرى ، بل استطاعت ذات مرة أن تستولي على اثنتين وثلاثين سفينة من هذه السفن في يوم واحد . ولسذا باتت الجيوش الصليبية مهددة بالمجاعة ، ثم لم تلبث المجاعة أن حلت بالمعسكر الصليبي وأعقبتها الأمراض المعوية الخبيثة ، ولا سيما حمى التيفويد التي اشتعلت بين الصليبيين اشتعالا وبائيا مميتا .

### لويس التاسع يسعى للمهادنة ، فلا يجد سامعا

لم يكن عجا عند ذلك أن يفكر لويس التاسع في مختلف الوسائل التي يستطيع بها العودة بجيشه سالما - ولو بعض السلامة - الى دمياط . وعمد أولا الى فكرة مهادنة المسلمين على قاعدة الجلاء الصليبي عن دمياط ، مقابل إعادة مدينة بيت المقدس الى الصليبيين . واعتقد الملك لويس أن في

الذى ولدته في دمياط وأطلقت عليه اسم جان ترستان ، أى وليد الأحران .

### المقرىزى المؤرخ يؤرخ حوادث هذه الغزوة

وحق لهذا الابن الفرنسى أن يسمى وليد الأحران ، كما حق للمصريين أن يسموا الأيام التى أعقبت رحيل الصليبيين عن مصر باسم أيام الأفراح ، اذ أقيمت الحفلات بدمياط والقاهرة والمنصورة وغيرها من البلاد المصرية ، وكتب الشعراء القصائد الرنانة التى تناسدها المصريون، ونفثوا بها جيلا بعد جيل ، وهى واردة في كتاب « خطط المقرىزى » المؤرخ المشهور الذى يرجع اليه الفضل في حفظ أخبار هذه الغزوة الصليبية الكبرى الثانية على مصر .

### لا يستطيع مؤرخ أن يتحرر من

#### الزاوية التى يكتب منها

ولكبار المحدثين من المؤرخين الأوروبيين ، أقوال وآراء فيما أفادته حملة الملك لويس التاسع على مصر في القضية الصليبية ، لا فيما أنزلته هذه الحملة بمصر وأهلها من ويلات الحروب . وهذه الأقوال والآراء تختلف فيما بينها بعض الاختلاف، لكنها كلها صادرة بالطبع عن زوايا أوروبية متنوعة الأشكال ، مثل تنوع الزوايا الهندسية في أشكالها، فهى حادة ضيقة أحيانا، أو قائمة معتدلة بالقياس الى سابقتها ، أو متفرجة رحبة الأفق ، وهذه الزاوية الثالثة هى أقرب الزوايا الى الاعتدال في كتابة التاريخ ، لاتساعها النسبي ، واستطاعتها أن تكون مصدرا لوجهات نظر متباينة متوافقة في آن واحد . على أنه من الواضح أن تنوع أشكال هذه الزوايا، فضلا عن اختلاف الأقوال والآراء الصادرة عنها ، لا تغير شيئا في الحقائق التاريخية ، أو ترتيبها الزمنى ، وليس لمؤرخ واحد أن يلم تمام اللام بجميع اللغات الأوروبية الحديثة ، فيحصى من مؤلفاتها المعتمدة في الاوساط العلمية ، جميع الأقوال والآراء حول حملة لويس التاسع ، ليدل منها في سهولة ووضوح ، أن كتابة التاريخ من زوايا متنوعة الاشكال عمل علمى سليم ، وأن الموضوعية المطلقة ، المجردة من الطابع البشرية ضرب من المحال في البحث التاريخي ، لأن لكل مؤرخ زاويته الجغرافية والثقافية والحضارية ،

الذين سثموا القتال . وكيفما كان الأمر اطاع الصليبيون نداء أصدده ملكهم اطاعة سريعة تامة ، وملكهم نفسه لا يعلم عن ذلك النداء شيئا ، الا بعد أن جاءت طائفة من الجند المصرى الأيوبي لتحمله اسيرا من منية الخولى عبد الله الى المنصورة ، حيث سجن مدة بدار قاضيها ابراهيم ابن لقمان .

وامتلات دور أخرى بالمنصورة باعداد من كبار الصليبيين الأسرى من الفرنسيين والانجليز وغيرهم ممن ظل على قيد الحياة ، كما طفحت أطراف المنصورة وخيام معسكرها بالآلاف الأسرى من عامة الجند الصليبية وبات الناس وأصبحوا على فرح بما تم من النصر على الصليبيين بفضل الجهود الجبارة والخطط العسكرية الجريئة .

### شروط التسليم

ثم جاء يوم الحساب وتوقيع العقاب على البادى المعتدى الذى اعتدى ، وخلاصة الشروط التى اتفق عليها الطرفان أن يجلو الصليبيون عن دمياط جلاء تاما ، وأن تبحر السفن الصليبية عن الشواطئ المصرية ، وأن يتعهد الملك لويس بدفع فدية مالية تعينت مبالغها وأقساطها ، ومواعيد تاديتها ، وأن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه ، وهذه هى شيمة العصور الوسطى ، وطريقتها في معالجة شئون الكبار من الأسرى . واشترط المفاوضون عن الدولة المصرية الأيوبية أن يتم تسليم دمياط قبل دفع شيء من الفدية ، أو اطلاق سراح الملك أو غيره من كبار الأسرى .

### لويس وكبار الصليبيين يدفعون الفدية

وفي صباح يوم الجمعة السادس من مايو ١٢٥٠م ، وهو يوافق الحادى عشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ . حضر الى دمياط من المنصورة قائد فرنسى اسمه جفرى سارجين وسلم البلد والبرج تسليميا للمفاوضين عن الدولة المصرية الأيوبية . ثم وصل الملك لويس وكبار الأسرى الصليبيين الى دمياط قرب العصر ، وقام الملك لويس بدفع القسطن الأول من الفدية المتفق عليها ، كما دفع كبار الأسرى ما انتهى الاتفاق على دفعه من فديتهم ، ثم دخل الليل ، وخرج الملك الفرنسى في جماعة من رجائه في سفينة صليبية الى عكا ، وكانت سبقته اليها زوجته مرجريت البروفنسالية ومعها ابنها

درساً في فضيلة الخضوع والرضى بقضاء الله . لكن الملك لويس لا بد أنه فكر وتامل في الثمن الذي دفعه ، من أجل هذا الدرس ، وهو تضحيته بعدة آلاف من أرواح الأبرياء » ولا يكتفى رانسيمان بهذه النغمة اللوامية ، بل يقول في نغمة أشد لوماً : « ان حملة الملك القديس لويس على مصر ورطت الصليبيين بفلسطين في كارثة عسكرية مروعة . وبالرغم من أن بقاء الملك لويس في عكا ، لمدة أربع سنوات ، ساعد كثيراً على تعويض ما خسرتة القضية الصليبية من سمعة ، فان الخسارة في الأرواح لم تكن شيئاً يمكن تعويضه . وكان الملك لويس التاسع أنبل عظماء الصليبيين خلقاً ، غير أن الدولة الصليبية بفلسطين ربما كانت أسعد حالا ، لو أنه بقي في فرنسا لم يفادها ، لأن هزيمته كانت أعمق أثراً من أية هزيمة صليبية سابقة ، وذلك لأن الملك لويس عاش طول حياته رجلاً فاضلاً يخاف الله ، ومع هذا ابتلاه الله بهزيمة حربية كبيرة . وفيما مضى من الحروب الصليبية كانت هزائم الصليبيين تفسر على أنها جزاء الهى على ما ارتكبوه من جرائم وآثام ، لكن مثل هذا التفسير الساذج لا يمكن الأخذ به في تحليل هزيمة القديس لويس . فهل لنا أن نستنتج من ذلك أن هزيمة الملك لويس التاسع في مصر ، كانت نتيجة لقضب الله على الحركة الصليبية كلها ؟ » .

### المسيحيون شكوا من قديم في جدوى الحروب الصليبية

وهذا السؤال قديم متداول بين أجيال الباحثين في تاريخ الحروب الصليبية ، وينتهي نسبه زمنياً الى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، حين تصدى جماعة من الكتاب الأوروبيين المسيحيين لتعليل أسباب الهزائم الصليبية ، ولا سيما هزيمة الملك لويس التاسع في مصر ، في مقالات مشهورة رفعوها الى الكرسي البابوى . وهذه المقالات تشغل جزءاً كبيراً من كتاب معروف في نقد الحروب الصليبية ، وهى في ذاتها دليل على شكوك فئة من المفكرين المسيحيين منذ العصور الوسطى ، في جدوى تلك الحروب ، عند الله رب العالمين .

محمد مصطفى زيادة

وهو لا يستطيع التحلل من أية واحدة منها ، مهما طرأ عليه من طارئ عابر .

### مؤرخ فرنسى يفخر بالاستعمار

ولدينا هنا مجموعة محدودة من المؤرخين ، في اللغتين الفرنسية والانجليزية فحسب للبرهان على ذلك ، وأول هذه المجموعة هنا ، على سبيل المثال لا الحصر أو الترتيب ، هو المؤرخ الفرنسى جروسيه ، وهو الذى يفتتح كتابته الطويلة الصافية ، في حملة لويس التاسع على مصر ، بقوله في كثير من التفاخر : « ان حملة الملك القديس لويس اصطفت بصيغة فرنسية خالصة ، وهى الصيغة التى تميز هذه الحملة عن سائر الحملات الصليبية السابقة ومع أن معظم الحملات الصليبية السابقة اشتملت على أغلبية عددية من الفرنسيين ، فان ذلك لم يفر من كونها - من ناحية الاسم - حملات صليبية عامة ، مشتركة بين الممالك الأوروبية، وأسهم فيها العالم المسيحى كله . أما حملة الملك لويس التاسع ، فتبدو لنا على عكس ذلك ، لأنها برغم ما أسبلته عليها قداسة زعيمها وقائدها من مسحة دينية عميقة . هى أول حملة استعمارية قامت بها مملكة فرنسا في الشرق » .

غير ان هذه النعرة الفرنسية ، وهى نعرة كليلية عن ادراك عيوب حملة الملك لويس التاسع وقيادتها ، لا تستطيع أن تجد صدًى في غمير الفرنسيين من المؤرخين ، ومثال ذلك المؤرخ الانجليزى أومان ، وهو الباحث الحربى الناقد ، اذ يصف الكارثة الصليبية في المنصورة ، بأنها درس من الدروس الحربية الدالة على « ان غلطة تتولد في ثنايا استراتيجية خاطئة تستطيع أن تؤدى منطقياً الى خطط حربية خاطئة .. ولذا كانت كارثة الصليبيين في المنصورة خاتمة حربية سيئة ، لزحف سيء التدبير ، للاستيلاء على مصر » .

### مؤرخ انجليزى ينعى على لويس ما صنع

أما رانسيمان وهو المؤرخ الانجليزى الثانى هنا ، ومؤلف أحدث الكتب في تاريخ الحروب الصليبية ، فيختتم ما كتبه في حملة الملك لويس التاسع على مصر ، بقوله : « انه كان من اليسير على الملك لويس التاسع أن يعلن أن كارثة حملته آية من آيات العناية الالهية ، ابتلاه الله بها ، ليعلمه